

ما اشبه اليوم بالامس

(لاني الغلاء المعري)

أعوذ بالله من قوم اذا سمعوا
 ما هم كلف ولم تدفعه مشقة
 ان ابن يقوب^(١) قال الملك عن قدر
 وخالد بن سنان ليس يقصه
 مالي رأيت دعاة النبي ناطقة
 لا يفرحن بمولود ذوو شرف
 كذلك الدهر عني من يصاحبه
 والله حق وان ماجت ظنونكم
 خيرا أسروه أو شرا أذاعوه
 ويفضل الامر في الدنيا مطاعوه
 برغم ناس لبعض التجر باعوه
 من قدره الكون في حي أضعوه
 والرشد يصست خوف القتل داعوه
 فانما بشراء الطفل ناعوه
 ولم يمد بسوى الخسران ساعوه
 وان اوجب شيء ان تراعوه

ربنا انا اطعنا ساداتنا وكرامنا

﴿ فأضلونا السبيلا ﴾^(٢)

٤

(أهل العلم والتعليم)

قلنا ان ساداتنا وكرامنا هم الخطفاء والامراء الذين يسدهم امر
 الاحكام ، والعلماء الذين يسدهم مام التعليم ، والمرشدون الذين تصدوا للتربية
 العملية ، وقد مضى الكلام على الخلافة والخطفاء وفي غضون ذلك الماع الى

(١) في نسخة الاصل: ان التجاشي

(٢) فأنحة العدد السادس والثلاثين الصادر في ١٢ رجب سنة ١٣١٦

سيرة الامراء، وأبنا أن ذنب الخلفاء الاكبر الذي ضيع الدين وفرق أهله
شيما هو عدم جمع المسلمين على عقيدة واحدة لا مجال للخلاف فيها،
والاقرار على أن كل ما وراهها يمد من الابحاث العلمية والتفنن في طرق
الفهم ولا يمس أصل الدين، والحظر على الدعوة والتعليم بما يمس العقيدة
الاساسية المتفق عليها كما كانت عليه الامر في عهد خلافة الراشدين،
فقد خاض صبيغ (كليم) التميمي على عهد عمر رضي الله تعالى عنه في
المتشابه وسأل عن تأويل القرآن فجلده عمر حتى اضطربت الدماء في جلده،
وفي رواية حتى شججه وسال الدم على وجهه ولما قال جئت ابغني العلم قال
له بل جئت تبغني الضلالة، ثم قال احملوه على قتب واخرجوه الى بلاده
ثم ليقم خطيباً فليقل ان صبيغاً طلب العلم فاخطأه، وكتب الى أهل البصرة
أن لا تجالسوه فكان بينهم كالبعير الاجرب لا يجلس الى قوم الا
تفرقوا عنه وتركوه وحده، ولكن الخلفاء والملوك تركوا الناس وشأنهم
من الفوضى الطيبة والدينية زمنا، واتصروا للبدعة طورا ودعوا اليها بل
الى الكفر في طور آخر (كائنا طميين الذين دعوا الى مذهب الباطنية)
وكل ذلك صرت الاشارة اليه في المقالات السابقة . ومن جراء هذا
قال البيضاوي في تفسير قوله تعالى (الذين ان مكناهم في الارض أقاموا
الصلاة وآتوا الزكاة وأسروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) فيه دليل على
صحة أمر الخلفاء الراشدين اذ لم يستجمع ذلك غيرهم

ومن سوء حظ المسلمين ان فساد الخلفاء والامراء تبعه في الغالب
فساد العلماء الذين كان يرجي منهم تقويم العوج واصلاح الخلل ومداراة

العلماء، واتبعوا أخطواتهم في كل فنج وساعدوهم باسم الدين على كل أمر، وفي كل عصر من العصور السالفة لم يرج في سوق العلوم حتى الدينية إلا ما راج ضد الأمراء والسلاطين، قال الامام حجة الاسلام الغزالي في بيان سبب اقبال الخلق على علم الخلفاء في كتاب العلم من احياء علوم الدين ما نصه .

« اعلم أن الخلافة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم تولها الخلفاء الراشدون المهديون وكانوا أئمة علماء بالله تعالى فقهاء في أحكامه، وكانوا مستقلين بالفتاوى في الاقضية فكانوا لا يستعينون بالفقهاء الا نادراً في وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا لها وكانوا يتدافعون الفتاوى وما يتعلق بأحكام الخلق من الدنيا وأقبلوا على الله تعالى بكنه اجتهادهم كما نقل من سيرهم، فلما أفضت الخلافة بعدهم الى أقوام تولوها بنير استحقاق ولا استقلال بعلم الفتاوى والاحكام اضطروا الى الاستماعة بالفقهاء والى استصحابهم في جميع أحوالهم لاستفتائهم في مجاري أحكامهم، وكان قد بقي من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الاول وملازم صفو الدين (بكسر الصاد أي جانبه) ومواظب على سمت علماء السلف فكانوا اذا طلبوا هربوا وأعرضوا فاضطر الخلفاء الى الالتجاء في طلبهم لتولية القضاء والحكومات،^(١) فرأى أهل تلك الاعصار عز العلماء واقبال الأئمة والولاية عليهم مع اعراضهم عنهم، فاشرفوا لطلب العلم توصيلاً الى نيل العز ودرك الجاه من قبل الولاية

(١) المنار : كان ذلك الالتجاء من حسنات الخلفاء وذلك الاعراض من سوء حظ

للمسلمين إذ كان سبباً في خروج القضاء عن أهله وتوسيده لمن شاع الظلمة على الأقباض

فأكبروا على علم الفتاوى وعرضوا أنفسهم على الولاية وتعرفوا اليهم وطلبوا منهم الولايات والصلوات فمنهم من حرم ومنهم من أئبح والمنجح لم يخل من ذل الطلب ومهانة الابتدال، فأصبح الفقهاء بعد ان كانوا مطلوبين طالبين، وبعد ان كانوا أعزة بالأعراض عن السلاطين أذلة بالاقبال عليهم الا من وفقه الله تعالى في كل عصر من علماء دين الله، وقد كان أكثر الاقبال في تلك الاعصار على علم الفتاوى والاقضية لشدة الحاجة اليها في الولايات والحكومات. ثم ظهر بعدهم من الصدور والامراء من يستمع مقالات الناس في قواعد العقائد ومالت نفسه الى سماع الحجج فيها فقلبت رغبته الى المناظرة والمجادلة في الكلام فأكب الناس على علم الكلام وأكثروا فيه التصانيف ورتبوا فيه طرق المجادلات واستخرجوا فنون المناظرات في المقالات، وزعموا ان غرضهم الذب عن دين الله والنضال عن السنة وقمع البدعة، كما زعم من قبلهم ان غرضهم بالاشتغال بالفتاوى الدين وتقلد أحكام المسلمين اشفاقا على خلق الله ونصيحة لهم. ثم ظهر بعد ذلك من الصدور من لم يستصوب الخوض في الكلام وفتح باب المناظرة فيه لما كان قد تولد من فتح باب من التعصبات الفاحشة والخصومات الفاشية المنفضية الى اهراق الدماء وتخريب البلاد، ومالت نفسه الى المناظرة في الفقه وبيان الاولى من مذهب الشافعي وأبي حنيفة رضي الله عنهما على الخصوص فترك الناس الكلام وفنون العلم واتقوا (انصبوا) على المسائل الخلافية بين الشافعي وأبي حنيفة على الخصوص، وتساهلوا في الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد رحمهم الله تعالى وغيرهم، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع وتقرير حال المذاهب وتمهيد أصول الفتاوى،

وأكثرها في التصانيف والاستنباطات ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات وهم مستمرين عليه إلى الآن ، وليس نعري ما الذي يحدث الله فيما بعدنا من الأعصار . فهذا هو الباعث على الأكتاب على الخلافات والمناظرات لا غير ، ولو مالت قوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة أو إلى علم آخر من العلوم لمالوا أيضا معهم ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين وأن لا مطلب لهم سوى التقرب من رب العالمين !! اه

أقول هذا ما قاله حجة الإسلام في جواهر علماء المسلمين إلى عهده في أواخر القرن الخامس ، والقرون الخمسة الأولى خير زمن للمسلمين علما وعملا وتمسكا بالدين ، وقد كان الأمر من بعد ذلك أدهى وأمر : جهالة عمياء ، وليال ظلماء ، وانتشار خوفاه ، ولا يعني الحجة بكلامه إلا الغالب الذين كان يدهم الزمام ، فأضلوا الأمة بنسب الإمام ، وقد تولد من خلافهم في قواعد العقائد التفرق في الدين وتكفير بعضهم بعضا اعراضا عن القرآن وانبعا لشهواتهم وحفظهم . أخبر الله تعالى أنه وصى الأنبياء (أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه) وقال تعالى (ان الدين فرقا دينهم وكانوا شيطا لمست منهم في شيء) وكفى بذلك تهديدا ، وأي تهديد أعظم من اثبات أن المفرقين لا تجمعهم بصاحب الدين جامعة ما ؟؟ وقد نهى عن ذلك نبي صريحا زيادة عما تضمنه هذا الخبر من النهي حيث قال (ولا تكونوا من المشركين * من الدين فرقا دينهم وكانوا شيعا كل حزب بما لديهم فرحون) قال المفسرون أي فرقا تشايح كل فرقة إمامها الذي أضلها عن دينها . والآيات القرآنية الآمرة بالاتحاد

(الذاريات ١٠١) العلماء كون خلافهم لفظياً . مضاره . رأي محمد عبده فيهم ٧٠١

في الدين وعدم التفرق فيه كثيرة (وان هذه أمتكم أمة واحدة وأنا
ربكم فاتقون) (واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا)

ولو ان غرضهم قمع المبتدعة والنضال عن الحق كما زعموا لما حدث
عن ذلك ما حدث من التفرق والتشيع الذي شق عصا الجماعة ورمى المسلمين
بالانقسام الذي أوصلهم الى ماري . أليس قد كان الخلاف بينهم لفظياً
في كثير من المسائل كما أوضحه المتأخرون بعد انتهاء عصور المشافهات
والناو في التعصب والتحزب ؟ فكيف خفي عليهم ذلك وهم أعلم من المتأخرين
الذين اهدوا اليه لولا غشاوة المهوى على أبصارهم ووقر الانتصار للنفس
في أسماهم !!

أليس منها ما لا فائدة من الخلاف فيه ولا يترتب عليه حكم كسألة
من هو الاحق بالخلافة من الصحابة التي كانت أعظم صدمة على الاسلام
والمسلمين ولا تزال كذلك الى اليوم ؟ اذ هي التي قسمت المسلمين الى
قسمين كبيرين وهما السنية والشيعة . وقد أطل في بيان التليس في تشبيه
هذه المظاهرات بمشاورات الصحابة ومفاوضات السلف الامام حجة
الاسلام في الاحياء فليرجع اليه من شاء ، وما أحسن ما قاله في هذا المقام
استاذنا الا كبر صاحب رسالة التوحيد وهو :

دقيقت علينا جرة نظر في تلك المقالات الحمقى التي اختبط بها القوم
اختباط اخوة تفرقت بهم الطرق في السير الى مقصد واحد، حتى اذا التقوا
في غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستخبر فظن كل أن الآخر
عدو يريد مقارعتة على ما يبدده، فاستحرج بينهم القتال ولا زالوا يتجادلون حتى
تساقط جاهم دون المطالب، ولما اسفر الصبح وتمازفت الوجوه رجع الرشد

الى من قي وهم الناجون، ولو تمارفوا من قبل لتعاونوا جميعا على بلوغ ما أملوا
ولو اقمهم الغاية اخوانا بنور الحق مهتدين »

ولو شئنا بيان الفتن والحروب التي تولدت من هذه الخلافات
لاحتجنا الى تأليف مجلدات

وأما الخلاف في الفروع فهو وان كان دون الخلاف في قواعد
العقائد فقد نجم عنه فتن كبيرة وأضر بالمسلمين ضررا عظيما، ناهيك بالفتنة التي
أثارها دخول العلامة ابن السمعاني في مذهب الشافعية، والفتنة التي هاجر بسببها
امام الحرمين والامام القشيري وأضرابهم من وطهم، والفتنة التي دفعت
بالشافعية الانتصار بالتار على الحنفية فكان ذلك سبب هلاك الفئتين، ولم
تزل كتب الفقه محشوة بما يخجل المنصف من قراءته كقول بعض الحنفية
يجوز للحنفي ان يتزوج بشافعية قياسا على الذمية، وقد أفتى بعض حنفية
طر ابلس الشام لهذا العهد بعدم جواز الاقتداء بشافعي قال لان الشافعية
يشكون في ايمانهم!! «والشك في الايمان كفر» لان أئمتهم جوزوا قول أنا
مسلم ان شاء الله، فذهب بعض الشافعية الى مفتي طر ابلس وطالب منه
قصة المساجد فتلافى الامر المفتي (جزاه الله خيرا) واستحضر ذلك الحنفي
ووبخه ونهاه

والحاصل ان المسلمين بدأوا يخرقون عن هدي الدين الاسلامي
من العصر الاول، فقد نقل العمالة الشاطبي في الاعتصام وغيره
ان الصحابة الذين عمروا كثيرا كانوا ينكرون ما رأوا في آخر حياتهم أشد
الانكار، حتى قال أبو الدرداء وأنس بن مالك (رضي الله عنهما) لو رجم
النبي صلى الله عليه وسلم الى الدنيا لم يعرف من دينه الا هذه الصلاة وقد

روينا عن شيخنا ابي المحاسن القاوقجي رحمه الله تعالى حديثا مسلسلا بقوله لهم:
رحم الله فلانا فكيف لو رأى زماننا هذا وهو ينتهي الى عائشة رضي الله
عنها فانها أنشدت قول لبيد:

ذهب الدين يعاش في أكنافهم وبقيت في خلف كجاد الاجرب
وقالت رحم الله لبيد فكيف لو رأى زماننا هذا . وفي كلام أمير
المؤمنين علي كرم الله وجهه من شكوى الانحراف عن الدين العجب
العجاب . هذه هي الدلالة القولية وحسبك بدلالة الاثر فلولا انحراف
العلماء والخلفاء لما انحرفت العامة ولما وقع المسلمون بهذه الرزايا والمصائب
التي انتهت بهم الى فقر العقول وفقر الايدي وضياع السلطة وتمزقوا كل
ممزق . وجملة ذنوب العلماء (١) الاختلاف في الدين (٢) الاعراض عن
القرآن والسنة (٣) الاعراض عن علم التهذيب الذي هو لب الدين (٤)
الاعراض عن معرفة سنن الكون التي أرشد اليها القرآن كثيرا (٥)
معاداة العلوم والفنون التي عليها مدار العمران (٦) ترك الامر بالمعروف
والنهي عن المنكر والدعوة الى الدين (٧) ترك الخطابة في يوم الجمعة
والخروج بخطبة الجمعة عما شرعت له (٨) الخروج بالدين عن سداجته
بتوسمهم في الواجبات العينية وصعوبة الكتب بحيث صارت الخيفة
السمحة التي كان يتلقاها الاعرابي من صاحب الشريعة في مجلس واحد
لا يمكن أن يعرفها الانسان الا في سنين طويلة ولا سيما اذا كان له عمل آخر
(٩) عدم مراعاة الزمان في أحكام المعاملات القضائية حتى اضطر الحكام
الى العمل بالقوانين الوضعية، مع ان الشريعة أوسع من ذلك وأصولها
تناسب كل عصر، وقد أوصلنا الجمود على مذهب واحد الى تضييع الشريعة

٤٠٤ / تقوم الأفكار . اختلاف الاجناس والاديان . ضرورها بالدولة (المدارة ١٣١)

فكان الاختلاف في الفروع أيضا نعمة مع انه لم يكن في الاصل الارحة
(١٠) هـر طريقة التعليم وكل موضوع من هذه المواضع يحتاج الى كلام
كثير وموعظنا الاعداد الآتية ان شاء الله تعالى

تقويم الافكار

(محاضرة الفاضل حموده انندي (بك) عبده المحامي)

(تابع لما قبله)

٣

ومما يزعم سياسة الملك الداخلية ويسبب تقويض اركان الدولة
كثرة الاجناس واختلاف الاديان، ولهذا كلما كانت رعية الدولة مؤلفة من
اجناس متعددة كلما صعبت قيادتها وكانت اقرب الى الهياج من المكنة والى
القلق من الراحة، فان اختلاف الاجناس والاديان مما يؤدي الى الاختلاف
في الطباع والعادات، ومتى كانت هذه متقاربة والاخلاق متباينة جر
ذلك الى النزاع في المعاملة والتنافس في المصلحة ثم ان ابناء الجنس الواحد
متى وجدوا بين اجناس اخرى يبت فيهم نوع من التعصبية والتألف
يحملهم على الثورة والخروج عن الطاعة لاقبل سبب واوهى حجة، ولهذا
كانت سياسة الدولة النلية في امورها الداخلية من اصعب السياسات
لان رعيها مختلفة الاجناس والاديان فقد كانت من وقت غير بعيد
صاحبة اليادة على السرب وبوسنه والجبل الاسود واليونان والبنغار
وقبرص وقد اصبحت هذه البلاد اليوم في معزل عن حكمها وبيادتها،